عقيدة الحبل بلا دنس

في الكنائس الشرقيّة

نظرُ للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ الكنيسة الكاثوليكية في تعاليمها وجامعهـا وبراءات احبارها لا تخترع العقائد التي تعرضها لمعتقد ابنائها بل تُعلن بهـا فقط اذ هي حارسة لوديعة الايمان التي قبلتها من السيد المسيح على يد رسله الاطهار. فلا تزال تصونها صيانة اثمن الكنوز واكرم الجواهر. على انَّ ثروتها واسعةٌ جدًّا لا تنفد وانَّما تنفق منها ما تراهُ اجدر بحاجات البشر على مقتضى كرور الاعصار فتستخرج من دفائنها ما كان مطمورًا وتنشر على رؤوس الاشهاد ما كان مستورًا. فهذا فعليا اذا ما حاولت البدع الجديدة ان تزرع زوَان الضلال في حقل القلوب. فانَّهـا تعمد الى تقليدها الثابت وتزيف التعاليم المستحدثة بقوَّة حجبها الراهنة فتبكم افواه المضلّين وتفحم ألسنة الكاذبين. فهكذا ردّت كيد اريوس في نحرهِ لمَّا انكر لاهوت السيّد المسيح وتصدَّت بزاعم نسطور وابطلتها لمَّا قسم المسيح وجعلهُ اقنومين وذهب الى ان البتول العذراء امّ انسان فقط. وكذلك تحكم الحكم الفصل اذا ما نشأت بين الكاثوليك آراء متباينة فتفرز بين الصحيح والباطل وبين الحقّ والضلال

وهذا ما فعلتهُ في منتصف القرن السابق منذ خمسين عامًا لمَّا قام ذلك الحبر السند والإمام الاوحد بيوس التاسع فأعلن وحدَّد بعد البحث المعمَّق والنظر المدقَّق واستشارة لساقفة العالم الكاثوليكي بان البتول الطاهرة والدة الله بنعمةٍ خصوصيَّة لم ينلها سواها حُبل بها بلا دنس الخطيئة

الجدّية اي خطيئة آدم الاصليّة ومن ثمّ انّ هذه الحقيقة احدى العقائد التي ورثتها من المسيح بتقليد متواصل لا رَيب فيه ومن شكّ فيها استحقّ ان يُفصَل من جسم الكنيسة

فيقول امام الاحبار « انّ هذه الحقيقة احدى العقائد الموروثة بتقليد متواصل » اشار الى ان الكنائس الشرقية التي هي قسم معتبر من كنيسة المسيح توافق في هذا الصدد الكنيسة الغربيّة . ومن ثمّ احببنا ان نجمع هنا بعض الشواهد الناطقة بمعتقد الشرق بحبل العذراء البريّ من الدنس لترى انّ ايمان الكنيسة اليوم كما كان سابقًا وانّ الرُسل الذين بشّروا بتعاليم المسيح في بلادنا لم يعلّموا غير ما علّمهُ اخوتهم الذين بشّروا في البلاد الغربيّة

*

وقبل ما نورد بعض هذه الشهادات الصادقة والآيات البيّنة الناطقة لا بُدّ لنا من توطئة نمهّد بها الطريق لادراك هذه النصوص فنقول:

انّ معنى قولنا « بانّ مريم العذراء امّ الله حُبل بها بلا دنس » لا يُراد به انّ هذه البتول وُلدت كما وُلد المسيح لذكرهِ السجود على غير طريقة البشر . فانّ ذلك لم يخطر على بال احد من الكاثوليك الذين يقرّون علانيةً بان لمريم العذراء ابوين طبيعيين وهما القديس يواكيم والقديسة حنّة . بل غاية ما نقول انّ البتول الطاهرة منذ اوّل دقيقة حياتها في احشاء والدتها لم تكن تحت رقّ عبوديّة الشيطان خزاهُ الله وذلك بخلاف البشر اجمعين الذين بعد عصيان آدم الجدّ الاوّل ورثوا عنهُ خطيئتهُ الاصليّة فيولدون كما يقول بولس الرسول ابناء غضب واعداء لله عزّ وجلّ . وانّما استثنيت مريم العذراء من هذا الحكم لا لاستحقاقاتها الخاصّة او بفضلها السابق بل بنعمة فريدة نالتها سلفًا منهُ تعالى بالنظر الى استحقاقات ابنها السيد المسيح الذي

كان لزمعاً ان يتّخذ من احشائها الطاهرة جسماً بشرياً ويلبس منها طبيعتنا فيضمّها الى طبيعته الالهية بوحدة اقنوم لاهوته

وليس في هذا الامر ما يوجب انذهالاً لانّ شرف الثالوث الأقدس كان يقتضي بان تكون امّ الكلمة المتجسد خاليةً من كل دنس لا عيب فيها البتّة . وذلك انّ البتول مريم بولادة ابن الله صارت مشاركة للآب الازلي فولدت في الزمن بالجسم ذلك الذي ولدهُ الآب قبل كل الدهور بطريقة العقل . أفكان يليق بالآب ان يسمح بان تُخلق مريم ملطّخة بالخطيئة الجدّية . وكذلك الابن لم يكن ليرضى له بوالدةٍ الّا ان تكون مزدانة بكل حسن وجمال لا ينقصها فضل او كمال . واوّل هذه المحاسن ان لا تكون مريم اسيرة ابليس الذي جاء المسيح ليهدم سلطتهُ بحيث لا يستطيع الخنّاس يوماً ان يفتخر عليه بانهُ استعبد امهُ . وكذلك الروح القدس الذي جعل قلب البتول كمقدسٍ لعجائبه لم يمكنهُ ان يسلّم عروسهُ مدّةً لحكم عدوّ البشر ليدنس هيكل نفسها الطاهر وهو يريد ان يحلّ عليها ويظلّلها بقوّته العلويّة

وزد على ذلك انّ مقام مريم العذراء وعظمتها وما نُدبت اليه من المهامّ الممتازة يستوجب طهارتها منذ اوّل دقيقة من حياتها فانّ النصارى كلهم يعترفون بان مريم العذراء ملكة السماء وسلطانة الملائكة . فليت شعري كيف تفوق الملائكة اذا رأوا في بعض اطوار حياتها اثر الدنس . وكذلك نقرُّ بانّها شاركت المسيح في عمل الفداء ولكن كيف يحاول خلاص غيره من يحتاج الى الخلاص . ثم انّها أُقيمت شفيعةً للبشر ووسيطة بين ابنها الالهي والخطأة فهل تستطيع ان ترد غضبهُ تعالى عن الجبلة البشريّة اذا كانت هي نفسها موصومة بوصمة الخطيئة التي اثارت غضب الله ؟ لا لعمري . فهذا واسباب اخرى عديدة تبيّن بياناً واضحاً ان مريم البتول خُبل بها بريئة من كل خطيئة

اصليَّة وان ابليس لم يجد ما يعيّرها به بل سحقت راسهُ ومزّقت شمل قوّاته الجهنميَّة

*

لكنَّ هذه البراهين العقليَّة لا تبتّ الامر قطعيًا لو لم يكن لدينا ادلَّة اخرى وضعيَّة تزيل الشبهة. واوّل هذه البيّنات ما ورد في الاسفار المقدَّسة من اقاويل واشارات ورموز متعدّدة اذا جُمعت وسُبرت بمعيار العقل المجرّد من الاهواء اثبتت هذه الحقيقة لاسيَّما اذا أُضيف اليها تفسير الآباء وملافنة الكنيسة. واخصُّ هذه الأقوال ما ورد في سفر التكوين (٣: ١٥) حيث قال الله لحوّاء المخدوعة وللحيَّة الخادعة التيّ اختفى الشيطان تحت صورتها: أجعل عداوةً بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها فهو يسحق رأسكِ وانت ترصدين عقبهُ». فاتفق الآباء على ان هذه الآية لا تشير فقط الى انتصار المسيح على الحيَّة الجهنميَّة بل الى ظفر والدتهِ ايضًا بعدوّ البشر اجمعين لانَّ هذه العداوة بين المرأة وبين الحيَّة دائمةٌ كما يظهر وهي تدلُّ دلالة صريحة على انَّ الحيَّة اي ابليس لم يمكنها البتَّة ان تظفر بها في ايّ ساعة كانت من حياتها. بل نسبت بعض الترجمات القديمة سحق رأس الحيَّة للمرأة عينها فقالت: «وهي تسحق رأسكِ» لا «وهو يسحق». وكذا فسَّر الآية بعض الآباء الشرقيين انفسهم من جملتهم القديس غريغوريوس النيصصي. ولا نتتبَّع بقيَّة آيات الكتاب الكريم المشيرة على قول الآباء الى طهارة البتول الاصليَّة كقول الروح القدس عنها في نشيد الانشاد: «كلكِ جميلة يا خليلتي ولا عيب فيكِ» وكقولهِ: «كالسوسنَّة بين الشوك كذلك خليلتي بين البنات» او ما نُسب اليها في سفر الامثال (٨: ٢٢): «الربُّ يملكني منذ بدء طرقهِ» وغير ذلك ممَّا تتَّفق الكنائس الغربيَّة والشرقية على تخصيصهِ بالعذراء الطاهرة. واننا نكتفي بذكر اقوال الملاك جبرائيل لها عند سلامهِ عليها: «السلام عليكِ يا

ممتلئة نعمة » وهو قول لايصح تماماً اذا كانت مريم خالية من النعمة الاوليَّة اعني البرّ الاصلي اذ تكون فاتتها لو خُلقت مدنَّسةً بالخطيئة الجدّية اكبر النعم واشرفها. كذلك لا يصح فيها قولهُ : « انكِ مباركة بين النساء » اذا لم تنل نعمة البراءة الاصليَّة التي خُلقت بها حوّاء في الفردوس

وفي هذه المقدمات كفاية فيمكننا الآن ان نتخطى الى ما اردنا بيانهُ اعني شهادات الكنائس الشرقية على حبل العذراء مريم بلا دنس فنسردها على حسب ترتيب حروف المعجم مباشرةً بالكنيسة الارمنيَّة ثم السريانية فالقبطيَّة فالكلدانية والمارونية فتكون الكنيسة اليونانية مسك الختام

١ الكنيسة الارمنيَّة

انَّ تعيُّد الكنيسة الارمنيَّة للبتول الطاهرة امّ الله لامرٌ مشهور (راجع مقالة حضرة الاب نرسيس صانيان في المشرق ٦ : ٧٥٢). ومما اثبتهُ البابا بنادكتوس الرابع عشر في كتابهِ عن اعياد السيد المسيح والطوباويَّة العذراء مريم (المطبوع في رومية سنة ١٧٥١ ص ٥٤٩) انَّ عيد حبل العذراء مريم بلا دنس كان جارياً في الكنيسة الارمنية قبل دخولهِ في الكنيسة الغربية منذ القرن التاسع. امَّا اعتقادها بهذه الحقيقة فيظهر جليًّا من الاوصاف العجيبة التي ينعت بها كتبة الارمن السيدة العذراء مما دخل في كتب طقوس هذه الكنيسة (١

قال يعقوب الاوَّل البطريرك (+١٢٨٧) في عيد ولادة العذراء : « في هذا اليوم نبتت من حنَّة تلك العوسجة اعني مريم العذراء التي اتَّقدت فيها النار الالهيَّة بنور لا يُدرَك فرأى بها موسى في سينا رمزاً عن البتول. اليوم اعطانا الحتلان الشرعيان يواكيم وحنَّة تلك الجزَّة السماويَّة التي تزل عليها الندى

١) راجع كتاب « التسابيح المريميَّة » المطبوع في البندقية بالارمنية واللاتينية سنة ١٨٧٧

فاطعمت النعمة وسال منها نبع الحياة (ص ٢) . وقال ايضاً : « انتِ الارض الناطقة والحقل الخالي من اشواك الخطيئة » (ص ٦)

وقال ترتان الكبير في القرن الثاني عشر : ايها الكلمة الالهي المولود من الآب قبل النور بلا والدة قد اخترت لكَ اليوم اماً بريئة من الدنس ولدتَ منها بلا اب (ص ١٤) . وقال : « انتِ هي امّ الرب والدة الله المرتفعة فوق السارافيم والكاروبيم انتِ تابوت العهد واناء الذهب والخباء السري الذي نزل فيه كلمة الاب »

وقال غريغوريوس الثالث البطريرك (+ ١١٦٦) في تسابيح عيد البشارة : « اننا لنعظمك جميعاً يا هيكل الله الطاهر من كل عيب ويا عوسجة غير محترقة التي حملت فيكِ نار اللاهوت التي لا تُطاق واطفأت نار الزلل في طبيعتنا البشرية » (ص ٢٠)

وفي هذه التسابيح الطقسية اقوال عديدة تشعر بهذا المعتقد فانها تارةً تدعو مريم « السارافيم الارضية » (ص ٦٤ موسى الخوريني في القرن الخامس) او « السارافيم المتجسدة » (ص ١١٠ بطرس الاوّل البطريرك + ١٠٥٢) بل « اسمى من السارافيم » (ص ٦٤ موسى الخوريني) و « ابهى من السماوات » (ص ٨٠ نرسي الكلاجيّ) . هي « الشجرة العطرية التي غرسها الله عينهُ وجعلها على مجرى انهار الروح فاثمرت في حينها ثمرة الخلود » (ص ٧٨ لـ) هي « مبطلة اللعنة التي تحت فلكَ هلاكنا واقامت امنا الخاطئة من سقوطها » (ص ٦٨ موسى الخوريني)

وهذه كلُّها اقوال لا تصدق في العذراء إلّم يُسلَّم بانها بريئة من الخطيئة الاصلية . بل جاء بعض الكتبة ما يصرّح بالامر واضحاً كقول جرجس الناركي في القرن العاشر : « انَّ مريم ابنة طاهرة للامّ الاولى الجانية فانها بريئة من جرثومة الخطيئة خلوة من لعنة الجنس البشري »

وكذلك في المكتبة الواتيكانية رسالة البطريرك الارمني كاتشدور ارسلها سنة ١٦٦٣ من حلب الى الكرسي الرسولي بايعاز الاب بُون اليسوعي يقول فيها ما تعريبهُ بالحرف:

« انا كاتشدور بطريرك الارمن وجميع طائفتنا نقرّ بانّ امّ الله مريم وُجدت طاهرة ومصونة تماماً من كل خطيئة اصليّة وهذا ما استفدناهُ من اقدم معلّمي كنيستنا »

٣ الكنيسة السريانية

انّ الكنيسة السريانية كانت قديمًا تحتفل في يوم واحد بميلاد العذراء وبحبلها البريء من الخطيئة الاصلية. ومن ثم تجد في الصلوات الطقسية التي تُتلى في ذاك العيد ما ينطق صريحًا بهذه العقيدة. فمن ذلك ما جاء في رمش العيد: « انّ صلاتها (حنّة) طارت الى السماء البهيّ وللحال حبلت حنّة بمريم بالبرّ بعد زمن العقر ». وهناك ايضًا وصف ادعية القديس يواكيم ثم يقول: ورأى الرحيم يوس يواكيم ولبّى دعاءهُ وللحال حبلت حنّة الصالحة بمريم البتول الطاهرة البارّة ». وفي فرض السحر يقول: « السلام عليكِ يا مدينةً محصّنةً التي لم تملك الخطيئة عليها قطّ » (١

ولآباء الكنيسة السريانية نصوص متعدّدة لا تُبقي شكًّا في معتقد طائفتهم ببراءة البتول من الدنس الاصلي. فمن ذلك قول القديس افرام كنّارة الروح القدس وهو يوجّه كلامهُ الى العذراء: « طوبى لكِ اذ قد زالت بكِ اللعنة التي الحقتها حوّاء بالاثاث » (في مدراش تهنئة العذراء بميلاد الرب). وقال ايضًا (في مدراش البتولية): « فليكبت ابليس خزيًا اذ يجد ان فسادهُ معدومٌ في مستودعكِ ». وقال في احد مداريشهِ النصيبيّة

١) راجع مجلة التمدّن الكاثوليكي سنة ١٨٧٦ (ج ٤ ص ٥٤٨—٥٥٠

يخاطب السيد المسيح: « انكَ انت وحدكَ وأمك تسوان حسنًا على الجميع اذ لا عيب فيك ولا شائبة في امك ». وقال يقابل بين مريم وحوّاء (ج ٢ ص ٤٢٧ من اعماله): اثنتان طاهرتان اثنتان سليمتا الغريزة مريم وحوّاء قد جعلتا متوازيتين فكانت الواحدة علّة موتنا والاخرى علّة حياتنا. وفي صلاة عيد انتقالها الى السماء يقال: « لقد أُعفيت مريم بروح القدس من لعنة الامّ الاولى لأنها لم تفتح قطّ باب الخطيئة »(١

ومن اقوال يعقوب النصيبينيّ في احدى تسابيحه: « كيف اصف صورة البتول مريم المتلئة من كل اصناف المحاسن. انّ الله قدّس جسدها فتشبه حوّاء. أمّا قبل شيوتها المشرة المحرّمة ». وهو القائل: « قد اختار لهُ العليّ بتولًا طاهرةً سبق فطهّرها وصانها لذاته بل خطبها لنفسه وشاء ان تكون وحدها بلا عيب برية من كل دنس فنزل وسكن فيها وهي الطوباويّة المملوءة كمالًا الطاهرة بالجسد والمقدّسة المختومة بالنفس ». وهذا تعليم القديس يعقوب السروجيّ بلا ريب فانهُ هو القائل: (٢ « لو وُجد في نفسها دنس او نقيصة لأكسس (ابن الله) لهُ امًّا اخرى سالمةً من الدنس ». وقال: « كما انّ مريم كانت بتولًا طول مدّة حياتها كذلك سكنت دائمًا القداسة في نفسها ». وقال: « انّ ابن الله برسالة روحهِ القدوس جعلها طاهرةً بارّة مباركة كما كانت حوّاء نفسها قبل ان تخاطبها الحيّة »

هذا وتضرب صفحًا عن شواهد اخرى لا تُحصى وصف بها الآباء السريان مريم باوصاف لا تليق الّا بمن خلت من كل خطيئة اصلية. ومن ثمّ

١) راجع منشور غبطة السيد البطريرك اغناطيوس افرام الثاني المطبوع في الشرفة (ص ٥-٨)

٢) راجع كتاب المير لانوره: De vita et scriptis S. Jacobi Sarugi episcopi, *Lovani* 1867, p. 187-195

لا عجب اذ اقرّ البطريرك اغناطيوس اندراوس سنة ١٦٦٣ معترفًا بعقيدة براءة البتول من الخطيئة الاصلية وفقًا لتعليم الآباء، فقال:

« انا الفقير اغناطيوس اندراوس البطريرك الانطاكي على السريان اثبت ما عرضهُ عليَّ الاب يوسف بُشوني اليسوعي في امر براءة العذراء مريم الكليَّة الطهارة من الخطيئة الاصلية واقرّ بانهُ موافق للتعليم الارثذكسي كما علَّمهُ كثيرون من الآباء الأقدمين ومن ملافنة الكنيسة الشرقية »

٣ الكنيسة القبطية

قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المنبوطة امّ الله. ومما تفرَّدت به انها خصَّت شهر كيهك برمَّته لمدح العذراء مريم ولها في صلوات ذلك الشهر اوصاف غاية في الحسن والرِّقة تجدها في كتاب الثاوتوكيات. فانَّها ليس فقط تطرئ عظمتها فتدعوها البتول الكلية القداسة (ص ١٢٥) المباركة بين كل النساء (٢٥٣) التي لا مثيل لها (٢٣٨ و ٢٦٤) وانَّها اعظم من الآباء والانبياء والقديسين (٦٨) وانور من الشمس (١٢٦) بل تسمّيها ايضًا امّ الاحياء (٩٥) مقدس البرارة (٢٤٨) شجرة الخلد (٢٠٦) وربَّما قابلت بين نقاوتها ونقاوة السارافيم والكاروبيم وصرَّحت بانَّها تفوقهم جميعًا بنقاوتها (ص ١٤٦) وتتقدَّمهم بثقة اعظم لبرارتها (٦٨)

وكثيرًا ما تشيد في خلوّها من كل دنس فتدعوها الاناء المختار الخالي من كل دنس (١٠٢) والتابوت الذي لم يقبل الفساد (٢٠٨) وعُلّيقة موسى التي لا تحرقها النار (٩٠ و١٠٨ و ١١٩) وفلك نوح المرتفع فوق المياه التي فيها يغرق الكل (٣٢٩) والحمامة البهية التي بشَّرت بالصلح بين الله والبشر (١٣٧)

واذا ذكرت آدم وخطيئتهُ استثنت السيّدة البتول فتقول انَّها خلاص

آدم وفرح حوّاء (٦٤ و ٨٢) وانّ بتوليم دخل آدم الى الفردوس بعد ان تناقل حكم الموت والفساد على كل جنسنا وعلى طبيعتنا جمعاء. اذ اتّبع آدم مشورة حوّاء فاكل ثمرة الشجرة (٨٧) وانبها مجد العذارى وامّ الله التي بها دُفعت اللعنة القديمة فتُتح باب السماوات (١٠٩). وفي التسبحة التي يترنّم بها الشعب في آخر القدّاس في اعياد العذراء بالعربية ما يؤيد هذا المعتقد لاسيّما هذين الدورين:

برية نقية من بطن امك ... عفيفة نقية في طول دهرك
سلطانة ابدية شبه ابنك ... ترفلين بالتمجيدات
انت شريفة دون الناس ... نقية من كل الادناس
وانانا منك الملاس ... تعظمك كلّ الاوقات

فهذه الاقوال وامثالها كثيرة قد جمعها حضرة الاب الكسيس مالون اليسوعي في مقالة مطوّلة يثبت فيها عبادة الاقباط لمريم العذراء امّ الخالق

٤ الكنيسة الكلدانية

آباء كنيستها الاوّلون هم انفسهم آباء الكنيسة السريانية فاقوالهم حجّة لدى الكلدان كما يستشهد بها السريان فلا حاجة الى التكرار. وهذه بعض نصوص أخرى اوردها الكلدان في تآليفهم. منها تسبحة القديسين يواكيم وحنّة ابوي العذراء. اقتطفها الكلدان من كتاب قديم وارساوها للاب يوسف اليسوعي سنة ١٦٦٣ فأثبتت مجلّة التمدّن الكاثوليكي ترجمتها اللاتينية في عددها الصادر في ١٨ ت ٢ سنة ١٨٧٦ وفي آخرها: «انّ الملاك بشّر حنّة بابنتها فجلت حبلًا بمريم مبهوتًا... لم تسقط (الابنة) بفخاخ الشيطان ولم يعمل فيها مكره وخبثه. ولم يستطع العدوّ مع كل قوّاته ان يمسّ براءتها بظفره»

وللجاثليق ايليّا الثالث المعروف بابي الحلم بن الحديثي اوصاف عجيبة

تنبئ باعتقادهِ ببراءة مريم الاصليَّة (ص٢١ من نسخة مكتبتنا الخطيَّة و ١٤ من الطبعة الموصليَّة): « السلام عليكِ ايتها السماء الثانية التي لمعت في بروج سمائكِ بوارق الرحمة وضرب في مروج احشائكِ سرادق العزّ والعظمة. السلام عليكِ ايتها الجزَّة السماويَّة التي ترشَّش عليها طلّ السما... يا حديقة الحكمة السمائيَّة التي نبتت على جداولها شجرة الاختصاص. وفردوس النعمة الروحانية التي خلق فيها آدم الثاني مفيد الخلاص... يا مقصورة الرحمة... وقدس الأقداس... انتِ هيكل الهياكل النافقة الذي لم يطأهُ اقدام البشر. بل حلَّهُ الاله بالرضى والمشيئة والإنعام المبتكر »

وللشاعر النسطوري الشهير جرجس وردة في القرن الثالث عشر ابيات عامرة في العذراء مريم يطري فيها طهارتها الفائقة على طهارة اللائكة. ومما قالهُ وكرَّرهُ فيها « انها فردوس عدن مغروس من الله » وانها « مقصورة شيَّدها العليّ بعزَّة قوَّتهِ » وانها « وحدها خالية من اثم حوَّاء »

وكذلك في أيَّامهِ اشتهر يوحنَّا الموصلي صاحب الدليل الروحي الذي همَّ بطبعهِ السيد الجليل ايليَّا ميلوس رئيس لساقفة ماردين في رومية سنة ١٨٦٨ ولهذا قصيدة طويلة (ص٢٥١—٢٦١) في مناقب العذراء ومما ورد فيها ما تعريبهُ: « من يستطيع ان يدرك او يفسِّر عظائم تلك البتول العفيفة البارَّة القديسة... التي قُدست منذ حُبل بها واختارها الله من الرحم » ومنها قولهُ: « مباركةٌ انتِ يا جزَّةُ رآها جدعون فعرف سرَّكِ لانَّ الندى الذي نزل عليكِ لم ينحدر على سواكِ والسيل الذي انصبَّ على كل الامكنة فافسدها لم ينزل عليكِ منهُ ولا نقطة واحدة »

٥ الكنيسة المارونية

انَّ اعتقاد الطائفة المارونية بحبل مريم البريَّ من الخطيئة الأصليَّة اشهر

من ان يُذكر. وقد جمع آخرًا الابوان الفاضلان القس يوسف حبيقة الراهب الماروني البكنتاوي وشقيقهُ الخوري بطرس شهادات متعددة من فروض الكنيسة المارونية تصدع ببراءة العذراء من دنس الخاطئة الاصليَّة فطبعاها في المطبعة اللبنانية في بعبدا مع نقلها الى الافرنسيَّة فنختار منها قليلًا من كثير. ورد في باعوث القومة الاولى (ص ٣٤): « يا مباركةً في النساء التي بواسطتها استوصلت لعنة الارض وحُكم اللعنة انتهى منها فصاعدًا ». وفي حساي ستار الميلاد (ص ٤٣): لذلك (اي المسيح) الذي حُبل به في الحشا الذي اتقنهُ باختيارهِ وحُبس في البطن الذي خلقهُ طاهرًا واشرق من الحضن الذي برأهُ مقدسًا وولد من البتول التي حفظها نقيَّة ».

امَّا صلوات التقديس فهي ملأى بالنصوص عن الحبل بمريم الطاهر لكنَّها حديثة العهد نكتفي بذكر ما يلي. فمنها (ص ٤٨): « انَّ الروح القدس قد ابان في نشيد الانشاد عن الحبل بك بدون دنس فقال كالسوسنة بين الاشواك كذلك قرينتي الجميلة بين البنات اللاتي سقطنَ في الاثم ». ومنها (ص ٥١): « انَّ مريم وحدها قبلت نعمة الروح القدس منذ وجودها في حشا امها ونجت من اللعنة العامَّة التي حلَّت بنا بتجاوز (آدم) للوصيَّة الاولى بجسارة ». ومنها في صلاة الصبح: « انَّ ملافنة اليمة الحقيقيين الذين تكلَّموا بالروح القدس اثبتوا لنا انَّ مريم ابنة حنَّة لم تتدنَّس بالخطيئة وقد انجلى الراي من تعليمهم الشريف ». وتقول في احد الالحان (ص ٥٧): « ويل لمن يكفر قائلًا انَّ مريم مكثت تحت استيلاء الشرير ولو زمنًا يسيرًا اذ حُبل بها من امها الطاهر »

ولا حاجة لايراد اقوال الآباء فانها قد سبقت في كلامنا عن الكنيسة السريانية. ونكتفي بشهادة البطريرك اسطفان الدويهي التي سلَّمها للاب بطُّون اليسوعي سنة ١٦٦٣ اذ كان خوريًا في حلب قال:

« انا اسطفان الدويهي الحقير بين رؤساء كهنة حلب ومرسل بجمع انتشار الايمان اعترف واقرّ ان سيدتنا الكوكب اللامع والطهر الساطع كانت خالية برينة من كل خطيئة اماً حالية واماً اصلية بل لم يُقضَ عليها بان تلطّخ بها البتّة بنعمة خصوصية من ابنها كما ورد في كتب طائفتنا المارونية والصلوات السريانية التي انّها الآباء القديسون والملافنة المختارون »

٦ الكنيسة اليونانية

كما انّ آباء الكنيسة اليونانية قد امتازوا بتآليفهم الفريدة وبشهاداتهم على كلّ التعاليم والتقاليد الثابتة الموروثة من الرسل فكذلك ترى اقوالهم عن براءة العذراء مريم من كل دنس اسطع دليلاً من سواهم

وما يجب استلفات النظر اليه اوّلاً انّ عيد الحبل بلا دنس شاع بادئ بدء في الكنيسة اليونانية وهو فيها قديم جداً. بيد انّهُ لم يُعرَف بهذا الاسم وانّما دُعي عيد حبل حنّة ولهُ رتبةٌ خصوصيّة وطقوس بهيّة وصلوات تقويّة تُتلى في اليوم التاسع من كانون الاوّل. ولهذا العيد ذِكرٌ في تيبيكون القديس سابا الناسك الشهير في القرن الخامس للمسيح. اما السمعاني فيظنّ انّهُ دخل في الكنيسة اليونانية في القرن الثامن فقط. ثم امر الملك مانويل كومنين في القرن الثاني عشر بان يكون من الاعياد الممتازة (راجع مجموع آباء اليونان ج ١٠٤ ص ١٠٧١—١٠٧٢ وج ١٣٣ ص ٧٤٩) والمقصود من هذه الحفلة بلا شك انّما هو اكرام حبل القديسة حنة بمريم بالبرارة والطهارة اعني نفس المقصود من الكنيسة الغربية باقامة عيد الحبل بلا دنس. وذلك يتّضح من الصلوات المثبتة لذلك اليوم في الميناون وغيره من الكتب الطقسية كما سترى. لا بل يرتأي العلماء الأثبات انّ الكنيسة اللاتينية اخذت هذا العيد من الكنيسة اليونانية لمّا رأت في الاحتفال به من اللياقة

ودونك الآن بعض نصوص الميناون كما طبعهُ الروم الارثدكس اقسامهم:

« قنداق القديسة حنة: اليوم تعيّد المسكونة لجبل حنّة الذي هو من الله. يا حنّة لقد سُرع ان يُنسج من جوفكِ برفيرة ملوكيّة. يا حنّة لقد حملتِ في جوفكِ العطر الذكيّ العرف » (ج ١ ص ٢٧٠) وفيه (ص ٢٦٨): « لتتباشر بايمان بجبل المولودة منها (يواكيم وحنّة) بجبال الهيّة امّ الهنا. . . . ان السماء الجديدة تُقام في بطن حنّة بالهام الله مبدع الكل ». وكل هذه الأقوال صريحة لا تحتاج الى شرح. واصرح منها قولهُ (ص ٢٦٩): « استجاب (الله) صلاتها (يواكيم وحنّة) ومنحها القديسة التي هي باب الحياة بالحقيقة فلنكرّم الجبل يا المقدّس »

وما ورد في الميناون تراهُ في بقية الكتب الليتورجية. ففي النشيد الذي يُتلى كل يوم لمريم العذراء يقال: « بواجب الاستحقاق حقًا تغبطك والدة الاله الدائمة الطوبى البريّة من سائر العيوب » فان كانت العذراء خُلقت في حالة الخطيئة الاصلية ايصحّ فيها هذا القول؟ لا لعمري. وكذلك ورد في كاترما الزبور ما حرفهُ: « انها وحدها بريئة وانها وحدها بلا عيب ولا دنس وانها مباركة ». وفي الاوديّة الخامسة اللحن السابع: « السلام عليك يا من ظهرت قبل الخليقة كلها مصطفاة لله ومنتخبة بجملتكِ بحسنكِ وجمال بهائكِ ». وفي اللحن السابع منهُ: « السلام عليكِ ايتها النقية انّ الحق قد وجدكِ وحدكِ سوسنة بين الاشواك من قداوتك مشرقًا فاتخذك عروسًا لهُ ومضيئة بضياء البتولية يا بريئة من كل عيب ». وفي الاودية الرابعة قانون الثرياديكوس: « السلام عليكِ يا من وجدها مُبدع كافّة الاشياء نقية وحدها منذ الدهور ولذلك اصطفاكِ هيكلًا طاهرًا لذاتهِ وقطن في احشائكِ مجيدًا تجديد الانام »

ومثل هذه الاقوال وغيرها كثير في المزّي والتيبيكون لو اردنا جمعها

لأتسع بنا المجال. وما يزيدها اعتبارًا انها كلها من اقوال آباء الكنيسة اليونانية لاسيما القديسين الاجلاء الذهبي الفم ويوحنا الدمشقي واندراوس الاقريطشي وفي اعمال هؤلاء الآباء وغيرهم ما لا يُحصى عدُّهُ من الشواهد الدالة الى تبرير العذراء من الخطيئة الجدية نقتصر بذكر بعضها

ورد في خبر استشهاد القديس اندراوس الرسول (مين ج ٢ ص ١٢٢٦) انهُ قال للحاكم: «كما انَّ آدم الاوَّل كُوِّن من الارض قبل ان يلعنها الله كذلك كُوِّن آدم الثاني من ارض عذراء لم تصبها اللعنة قطّ». وهذا الكلام موجود بحرفهِ في ليتورجيَّتي القديس يعقوب والقديس مرقس ولستشهد بهِ القديس عبدا البابليّ امام سابور لمَّا اراد قتلهُ

واورد تاودوريطس عن القديس هيبوليتس شهيد القرن الثالث (مين ج ١٠ ص ٨٦٣): انَّ تابوت العهد هو رمز عن الفادي وكما انَّ التابوت اصطُنع من خشب غير قابل للفساد كذلك المسيح من حيث هو انسان كُوِّن من خشب لم يعتهُ الفساد اعني من العذراء ومن الروح القدس»

وقد ذكر القديس ديونيسيوس الاسكندري في القرن الثالث ايضًا العذراء مريم في رسالتهِ الى بولس السيماطيّ وسمَّاها: «منزلًا لم تصنعهُ الايادي البشريَّة وابنة الحياة والابنة المباركة من رأسها الى قدميها والفردوس البتولي الحاوي لكنز ثمين»

وقال في القرن الرابع القديس يوحنَّا ذهب الذهب في ميمر عيد البشارة (راجع البرق الانجيليّ ج ٢ ص ٣٢٤): افرحي يا من طردتِ الموت الى العمق من حين كانت في احشاء أمها... القرية من اللاهوت الازلي والثالوث العنصري الفائقة على المواكب الشاروبيميَّة العالية السموّ وعلى الصفوف الساروفيميَّة»

وقال القديس اندراوس الاقريشطيّ في القرن السابع (في ميمرهِ عن

ولادة العذراء) : « لمَّا اراد فادي البشر الذي كوَّن آدم الاوَّل متَّخذًا ترابًا من ارض عذراء وغير ممسوسة ان يبتدل هذا التكوين الاوَّل بتكوين جديد وخليقة جديدة ويهيِّئ لهذه الغاية تجسدهُ اصطفى من كل الطبيعة تلك العذراء الطاهرة الفائقة النقاوة المأخوذة بيننا »

واوضحُ من هذا ايضًا قول القديس يوحنا الدمشقي في اواخر القرن السابع : « انَّ لي قولًا آخر اسمى واعلى شأنًا انَّ الطبيعة المغلوبة من النعمة وقفت مرتجفةً ولم تجسر ان تدنو . . . فتقدَّم نسل النعمة بل استمرَّت عقيمةً الى ان اتت النعمة بثمرتها (١) »

هذا ومئات من شواهد أخرى تزيل كلَّ ريب في معتقد الكنيسة اليونانيَّة بجبل العذراء مريم الطاهر والخالي من كل عيب ودنس . ولو لم يكن لدينا برهان آخر سوى اسم العذراء في اليونانية لكفى فان اليونان لا يدعونها الَّا « Παναγία » اي الكلية القداسة . ولا قداسة تامَّة حيث ملكت الخطيئة الاصلية

ومن ثم لا عجب ان مكاريوس الثالث البطريرك الانطاكي سلَّم للاب يوسف بسون صورة ايمانهِ في هذه العقيدة سنة ١٦٦٣ فامضاها بخاتمهِ قائلًا :

« انا الفقير مكاريوس بطريرك مدينة الله انطاكية العظمى اقرُّ صحَّة هذا التعليم الذي اوضحهُ الاب يوسف بسُون اليسوعي عن سيِّدتنا مريم الكلية القداسة اعني انَّها بريئة وحرَّة تمامًا من الخطيئة الاصلية كما فسَّر عدد وافر من الآباء القديسين ومعلِّمي الكنيسة الشرقية الاقدمين »

وهذا المعتقد نفسهُ قد اثبتهُ الاب غاغارين اليسوعي الروسي الكنيسة

---

١) راجع مقالةً مطوَّلة في هذا الشأن ردَّ فيها حضرة الاب انطون صالحاني في البشير على منشور غبطة بطريرك الروم القسطنطيني في ما يتعلَّق بعقيدة الحبل بلا دنس وطبعها على حدةٍ سنة ١٨٩٧

الارثذكسية الروسية بمقالة جميلة عدّد فيها اقوال هذه الكنيسة في جبل البتول الطاهر وطبعها في باريس سنة ١٨٧٦

فمن ذلك موعظتان جليلتان في جبل البتول العذراء البريّ من الدنس الاصليّ الواحدة للواعظ الروسيّ الارثذكسيّ الشهير لعازر برانوفتش اسقف تشرنكوف في كتاب البرق الانجيليّ المطبوع في كياف سنة ١٦٧٤. والاخرى لانطون راديشيلوفسكي رئيس احد ادبار كياف الارثذكسية في كتابه « حديقة مريم امّ الله » المطبوع في كياف ايضاً سنة ١٦٧٦. وكلاهما يدافع عن هذه الحقيقة بالفاظ عسجديّة غاية في الرقّة والوضوح لا تبقي ريباً لمرتاب. وكذلك موعظة ثالثة في مولد العذراء مريم ليوانيس غالياتفسكي رئيس اكادمية كياف في القرن السابع عشر يقول فيها (ص ١٧٢): انّ الخليقة الاصلية قد دنّست كلّ البشر وليس احد نجا منها الّا العذراء مريم الكلية الطهارة... ولمّا يصرخ كل انسان مع صاحب المزامير « بالخطيئة حبلت بي امي » مريم وحدها نجت من هذه اللعنة بنعمة الله ولذلك سلّم عليها جبرائيل قائلاً: « السلام عليكِ يا ممتلئة نعمة الربّ معكِ »

وهناك شواهد اخرى عديدة اوردها الاب غاغارين من اقوال الكتبة الروسيين وليتورجيتهم لا يسعنا ذكرها لضيق المكان. ويجمل القول انّ الكنائس الشرقية كلّها دون استثناء تشهد بلسان معلّميها وتقليدها المتواصل وكتبها الطقسية بعقيدة حبل مريم العذراء البريّ من الخطيئة الاصلية. ونختم مقالنا بما كتبهُ في هذا الشأن صاحب قصص الانبياء المسمّى بالعرائس تأليف الثعلبيّ (ص ٣٢٧ من طبعة مصر سنة ١٢٩٨): « ما من مولود الّا والشيطان يمسُّهُ حين يولد فيستهلُّ صارخاً من مسّ الشيطان الّا مريم وابنها »